العرب
الجمعة 2021/07/23
السنة 44 العدد 12126

سد النهضة، ما بعد الضرر

علي الصراف
كاتب عراقي

تقول إثيوبيا إنها أنجزت أكثر من 80 في المئة من إنشاءات سد النهضة. وحيثما بلغت التعبئة الحدود القصوى للإنشاءات الحالية، فإن استكمال أعمال البناء سوف يتطلب انتظار صيف العام المقبل. وبمقدار ما يتعلق الأمر بالموسم الحالي، فإن كل فائض المياه يتعين أن يعبر من فوق حافة السد العليا.

هذه الإمكانية تتيح للسودان أن يعوض النقص الفادح الذي تعرض له سد الروصيرص.

سد النهضة يحتجز الآن نحو 74 مليار متر مكعب من المياه، وتحتاج إثيوبيا أن ترفع المنسوب إلى نحو 100 مليار متر مكعب، لكي يمكنها أن تُشغّل توربينات إضافية لتوليد الطاقة الكهربائية، وهو ما يعني عبور المزيد من المياه إلى بلدي المصب.

الفتحتان الراهنتان لعبور المياه لا تكفيان لتسديد حصة مصر البالغة 55 مليار متر مكعب سنويا، ولا حصة السودان البالغة 18 مليار متر مكعب سنويا. ولكن إضافة فتحة ثالثة يمكنه أن يسدد النقص. وإثيوبيا تحتاج في نهاية المطاف:

أولا، أن تترك فائض المياه يعبر من فوق حافة السد، لأنها لا تستطيع تخزينه من الأساس.

ثانيا، أن تفتح معبرا آخر أو أكثر لتشغيل توربينات توليد الطاقة.

> لا شيء يبرر الجدال حول حقوق مصر والسودان في مياه النيل كما لا شيء يبرر الجدال في حق هذين البلدين أن يحصلا على اتفاق يضمن لهما حصتهما من مياه النيلين

هذا يعني في النهاية، أن المشكلة الحقيقية ليست في السد نفسه. وإنما في عجز بلدي المصب عن الاستفادة من الفائض.

الضرر الذي وقع حتى الآن، ثبت أنه محدود. لاسيما بانخفاض منسوب المياه خلف الروصيرص بنحو النصف. ويتسع هذا السد لنحو 7.5 مليار متر مكعب. بينما تتسع بحيرة ناصر، خلف السد العالي لنحو 164 مليار متر مكعب (32 مليار منها معدوم الفائدة). وفي حين أن مصر يمكن أن تنجو لنحو عامين، إذا انقطعت إمدادات النيل الأزرق، فإن السودان لن ينجو إلا لبضعة أشهر.

المصريون يبحثون عن حلول منذ عدة عقود للاستفادة من مياه النيل التي تدخل البحر الأبيض المتوسط. وهي فاقد صاف، ولا مبرر له. إقامة سدود صغيرة وترع، يمكنها أن توفر ممرات حيوية لاستغلال نهايات النيل. ولئن كان يبدو أن رفع المياه إلى مستويات أعلى عقدة اقتصادية في حالة الحاجة إلى كهرباء، فإن العبقرية الإنسانية حلت هذه المشكلة منذ ما قبل التاريخ، باستخدام النواعير.

وتنصيب نواعير تتناسب مع قوة دفع المياه، ليس عقدة هندسية، ولا هو عقدة اقتصادية أصلا، لأنها لا تحتاج إلى كهرباء. كل مليار متر مكعب يمكن استغلاله عبر هذه الطرق، هو مكسب صاف من ذلك الفاقد الصافي. ومثلما أن دولا عدة تنشئ خزانات مكشوفة أو مغطاة لحفظ المياه، فإن جهدا هندسيا أقل تعقيدا، يمكنه أن ينشئ خزانات في مصر والسودان لحفظ وتوزيع المياه، وهو ما يسمح بتوسيع الأراضي الصالحة للزراعة أيضا.

الأزمات التي عاشتها مصر والسودان خلال العقدين الماضيين، هي التي عطلت القدرة على إيجاد حلول. وهو ما لم يعد له مبرر الآن. وفي الواقع فإن الاستثمارات في تخزين وتوسيع استخدامات الفائض ليست باهظة التكاليف، ولكنها تحقق عائدات ضخمة، وتوفر على البلدين التورط في مخاطر جسيمة.

لا شيء يبرر الجدال حول حقوق مصر والسودان في مياه النيل. كما لا شيء يبرر الجدال في حق هذين البلدين أن يحصلا على اتفاق ملزم يضمن لهما حصتهما من مياه النيلين. ولكن لا شيء يبرر ثقافة الكسل حيال المخاطر. ولا شيء يبرر الاتكالية التي ظلت تنظر إلى النيل على أنه كائن مقدس لا يعتريه التغيير.

التغير المناخي الذي جعل ألمانيا وبلجيكا والصين، وغيرها مما سيأتي، عرضة لفيضانات خطيرة، يمكنه أن يعني أن بلدانا أخرى سوف تتعرض لموجات جفاف مروّعة.

المصريون يقرأون كل يوم قصة يوسف في القرآن الكريم. ويعرفون ما قد تعنيه سبع سنوات عجاف يأكلن بقراتهم السمان. ولكنهم منذ عهد الهكسوس (بين عامي 1615 – 1560 ق.م)، لم يفعلوا إلا القليل لضمان النجاة. السد العالي ربما كان هو الشيء الوحيد على امتداد هذا التاريخ. أي على امتداد 3000 عام.

ولا يحتاج المرء أن يكون ضليعا في علوم المناخ لكي يفهم أن الأمور لن تبقى كما هي لثلاثة آلاف عام أخرى. التاريخ لا يتحمل الهبل ولا الكسل ولا الاستهبال.

بعض الفنتازيا يذهب إلى حد البحث عن سبيل لنقل المياه إلى النيل من حوض الكونغو الذي تشترك به 9 دول أفريقية، بينما جنوب السودان يغرق بفائض مياه يصل إلى نحو 550 مليار متر مكعب سنويا.

هذا بلد فقير. وروابطه بالسودان ما تزال قوية، حتى أن الكثير من مواطنيه ما يزالون يعتبرون أنفسهم سودانيين، ويتمنون لو أن بلدهم عاد ليكون جزءا من سودان ديمقراطي. ولكن بهذا أو ذاك، فإن إعماره والاستثمار في فائض المياه وبناء سدود فيه لتزويده بالطاقة الكهربائية والمساهمة في تنميته، هي أفضل سبيل لضمان بقاء هذا البلد قريبا من جيرانه، وترتبط مصالحه الحيوية بمصالحهم.

وفي الواقع، فإن هناك اتفاقات بين مصر وجنوب السودان في مجالات استغلال موارد المياه، إلا أنها اتفاقات مخجلة بكل معنى الكلمة. واستثماراتها لم تتعد حتى الآن 26 مليون دولار.

البلد الذي يشق النيل الأبيض أراضيه من الجنوب إلى الشمال، يستحق أكثر من ذلك بكثير. يستحق أن تبنى فيه سدود، وأن تتوفر له استثمارات لإنتاج الطاقة، وليس للبحث "عن مصادر المياه الجوفية". هذا استهبال حقيقي. بل إن الاستثمارات المصرية يجب أن تمتد إلى أوغندا نفسها، حتى ليمكن ربط البلدان الأربعة (مصر والسودان وجنوب السودان وأوغندا) بسلسلة من المشاريع المائية والكهربية وغيرها من مشاريع التنمية. بل وحتى ليمكن النظر إليها كوحدة اقتصادية تنموية واحدة.

لقد انتهينا من كوابيس نوم طويل، بأزمة مع أثيوبيا، وكاد الأمر يبلغ حد التهديد بالحرب. وبعد أقل من 20 سنة أخرى، سوف نصحو على أزمة مع أوغندا وجنوب السودان، لو أن النوم طال.

يكفي هبلا مع الأيام، ويكفي استهبالا مع الجيران. جهدٌ مّا حقيقي يجب أن ينهض الآن. نحن نقرأ سورة يوسف منذ أكثر من 1400 عام. ولكن اقرأها، مرة واحدة إضافية، لعلك تفهم، قبل أن تموت بقراتك في السنوات العجاف.

«الجمهوريّة الإسلاميّة» والأحواز

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ليس معروفا هل من أفق لتحرّك أهل منطقة الأحواز في الجنوب الإيراني. الأمر الوحيد المعروف أنّ النظام القائم في إيران عاجز عن التعاطي مع أزمته المعقّدة التي هي أزمة النظام نفسه منذ قيامه في العام 1979، قبل أيّ شيء. هناك نظام يريد لعب أدوار على الصعيد الإقليمي تفوق حجم إيران، بدل الانصراف إلى الداخل الإيراني، بما في ذلك مشاكل المواطنين في محافظة خوزستان التي كانت في الماضي منطقة الأحواز، وهم عرب من الشيعة والسنّة في الوقت ذاته.

لأهالي الأحواز مطالب محدّدة في مقدّمها المعاناة من الشح في المياه. إضافة إلى ذلك، إنّهم يتعرضون لظلم تاريخي وتمييز نظرا إلى أصولهم العربيّة في ظلّ نظام يحتقر كلّ ما هو عربي في المنطقة من منطلق تفوّق الحضارة الفارسيّة. رحل الشاه ولم يتغيّر شيء في السلوك الإيراني تجاه المنطقة العربيّة كلّها. لا يدلّ على ذلك أكثر من احتلال إيران الجزر الإماراتيّة الثلاث (أبوموسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى) منذ العام 1972!

أخذ تحرّك عرب الأحواز بعدا جديدا بعدما أطلقوا في تظاهراتهم الأخيرة شعارات معادية لـ"المرشد" علي خامنئي ولنظام "الوليّ الفقيه" الذي أسّسه آية الله الخميني بعد انتصار الثورة الشعبيّة على الشاه ووضع يده عليها. حصل ذلك عن طريق خطوات مدروسة أدّت إلى قيام "الجمهوريّة الإسلاميّة" بديلا من حكم مدني ودستور عصري دعت إليه شخصيات مهمّة لعبت دورا محوريّا في نجاح الثورة. كان من بين هذه الشخصيّات مهدي بازركان الذي رأس أوّل حكومة في مرحلة ما بعد سقوط الشاه.

عاجلا أم آجلا سيقمع "الحرس الثوري" ثورة الأحوازيين في محافظة خوزستان التي كانت في الماضي القريب إمارة عربيّة مستقلّة عن إيران. الماضي القريب هنا هو العام 1925 حين اجتاح رضا بهلوي (والد الشاه الذي أسقط في 1979) الأحواز وأسر أميرها الشيخ خزعل الكعبي ووضعه في الإقامة الجبريّة في طهران. قصّة الأحواز طويلة ومرتبطة باكتشاف النفط فيها واهتمام بريطانيا بعلاقة مميّزة مع إيران بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى وانهيار الدولة العثمانية. اختارت بريطانيا فصل الأحواز عن العراق كي لا يكون الشيخ خزعل ملكا على العراق وعربستان. سلّمت العرش في العراق إلى الهاشميين عبر فيصل الأوّل. غيّر رضا بهلوي اسم الأحواز إلى خوزستان واسم المدينة الأهمّ فيها وهي المحمّرة إلى خورمشهر. أكثر من ذلك، سعى إلى تغيير التركيبة الاجتماعيّة في منطقة الأحواز عن طريق خلق استيطان فارسي فيها والإتيان بفرس من خارجها للعمل في مجال استخراج النفط وصناعته.

كما العادة سيستخدم "الحرس الثوري" الذي هو بإمرة "المرشد" القوّة من دون رحمة بالناس ومن دون طرح سؤال بديهي يتجاوز لغة القمع، سؤال من نوع لماذا تحرّك الأحوازيون؟

يعبّر تحرّك الأحوازيين عن فشل ليس بعده فشل لنظام أطلق منذ قيامه شعارات يعجز عن تنفيذها. أحد هذه الشعارات توقّف إيران عن أن تكون دولة يعتمد اقتصادها على النفط والغاز. في مرحلة ما بعد نجاح الثورة، تعتمد إيران على الدخل الآتي من النفط والغاز أكثر مما كانت تعتمد على ذلك في عهد الشاه. كلّ ما في الأمر أنّ "الجمهوريّة الإسلاميّة" قررت التغطية على مشاكلها الداخلية، بما في ذلك أن أكثر من نصف الشعب يعيش تحت خطّ الفقر، عن طريق الهرب إلى الخارج. على من يريد الهرب إلى الخارج ولعب دور القوّة الإقليميّة المهيمنة امتلاك اقتصاد قويّ بدل أن يكون في كلّ وقت أسير لعبة ابتزاز لم تسفر حتّى الآن سوى عن تصدير الخراب والدمار. ليس مصير الاتحاد السوفياتي سوى مثل صارخ على ذلك.

أينما حلّت إيران، يحل الخراب والدمار. من يحتاج إلى أمثلة على ذلك يستطيع النظر إلى ما حلّ بالعراق وسوريا ولبنان واليمن حيث تعمل الميليشيات المذهبيّة التابعة لإيران بكلّ راحة. ماذا حلّ بغزّة بسبب صواريخ إيران ودعمها لحركة "حماس" بالمال والسلاح منذ سنوات طويلة؟

يشير ما تشهده الأحواز في هذه الأيّام إلى فشل إيراني ليس بعده فشل. لم ينقلب أهل الأحواز على النظام لدى وقوع الحرب مع العراق بين 1980 و1988 على الرغم من أن الجيش العراقي استطاع في بداية تلك الحرب احتلال مناطق واسعة في الأحواز، بما في ذلك خورمشهر (المحمّرة). كان رهان صدّام حسين، الرئيس العراقي وقتذاك، والمحيطين به على أنّ الأحوازيين سيقفون معه. لم يحصل ذلك. كانت حساباته خاطئة مثل الحسابات الإيرانية التي راهنت، بعد تراجع الجيش العراقي، على أن جنوب العراق سيكون لقمة سائغة لـ"الجمهوريّة الإسلاميّة" في ضوء وجود أكثريّة شيعية فيه.

> يعبّر تحرّك الأحوازيين عن فشل ليس بعده فشل لنظام أطلق منذ قيامه شعارات يعجز عن تنفيذها، أحد هذه الشعارات توقّف إيران عن أن تكون دولة يعتمد اقتصادها على النفط والغاز

لم ينقلب الأحوازيون على إيران على الرغم من كلّ الممارسات الظالمة التي تعرّضوا لها. من انقلب على الأحوازيين هو النظام الإيراني نفسه الذي ليس لديه ما يقدّمه لشعبه. سيتمكّن النظام من السيطرة على التحرّك الأحوازي على الرغم من تمدّده في مناطق إيرانية مختلفة وصولا إلى محطات للقطارات في طهران حيث أطلقت شعارات معادية لخامنئي. ولكن ماذا بعد ذلك؟

لن يكون من مفرّ من طرح السؤال البديهي: هل تستطيع إيران أن تكون دولة طبيعيّة أم لا؟ تستطيع إيران ممارسة كلّ الأدوار التي تمارسها حاليا، لكنّه كان كافيا أن تفرض عليها إدارة دونالد ترامب عقوبات قاسية كي يعاني اقتصادها الأمرّين وكي تهرب في اتجاه الصين. لا تدرك "الجمهوريّة الإسلاميّة" أنّ الصين ليست جمعية خيريّة وأن التعاطي بشفافية مع "الشيطان الأكبر" الأميركي يبقى أفضل بكثير من التعاطي مع الصين التي هي قوّة إمبرياليّة حقيقية. الصيت الإمبريالي لأميركا هو صيت بالاسم فقط. الصيت الإمبريالي الفعلي هو للصين الجائعة دائما إلى الطاقة وإلى الرغبة في الحصول عليها بأبخس ثمن!

مرّت أكثر من أربعة عقود على قيام "الجمهوريّة الإسلاميّة" في إيران. حققت نجاحات كبيرة في العراق وسوريا ولبنان واليمن. لا تعني هذه النجاحات أيّ إنجاز لا على الصعيد العمراني ولا على الصعيد الإنساني ولا على صعيد تصالح إيران مع محيطها. كلّ ما تحتاجه إيران هو مصالحة مع نفسها. يعكس ما نراه حاليا في طريقة تعاملها مع الأحوازيين عن عجز في ذلك. هذا عجز أدى إلى نتائج سلبيّة على المنطقة كلّها وصولا إلى جعل مستقبل بلد مثل لبنان، المزدهر إلى ما قبل سنوات قليلة، في مهبّ الريح...